

(الموصل الشجرة التي لا تسقط اوراقها ولا تجف عروقها)

الموصل في العصور العربية الاسلامية

بقلم: أ.د. احمد قاسم الجمعة

تطرقنا في مقال سابق عن رقد الموصل واهميتها الحضارية في العصور القديمة , والآن نكمل ذلك الرقد وتلك الاهمية في العصور العربية الاسلامية التي تميزت بالاصالة والتطور والابتكار فالموصل خرجت من العصور القديمة بعد تحريرها من سيطرة البيزنطيين عام (16 هـ/637م) في العصر الراشدي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . وتميزت البوادر الحضارية بتمصير المدينة المتمثل ببناء لبنة مركزية تتألف من مسجد جامع ودار امارة واسواق مجاورة . ويأتي ذلك تمشيا مع خطة المسلمين القاضية ببناء مسجد في المناطق المفتوحة والمحرة ليتخذ محلا لعبادتهم ورمزا لسيادتهم ودار امارة تكون مركزا لادارتهم مع اسواق مجاورة لتدبير حاجاتهم الاقتصادية , ويأتي ذلك الاحياء السكنية . وسرعان ماغدت الموصل قاعدة للفتح الاسلامي وشملت ولايتها مناطق ومدن متعددة منها : تكريت وكركوك والحديثة وشهرزور . وخرجت منها الجيوش التي فتحت ارمينيا واذربيجان وبعض مناطق اسيا الوسطى

وفي العصر الاموي (40-132هـ/660-749 م) زاد الاهتمام بالنواحي الحضارية ولاسيما العمرانية والاقتصادية ومنها : تقوية سور المدينة , وبناء قلعتها : (باشطابية) , وربطها بجانبها الشرقي بجسر . واشتهرت بقصورها المتميزة بنمط معماري وفني خاص كقصر المنقوشة الذي اشق اسمه من زخارفه وفسيفسائه . وتوسيع المسجد الجامع فضلا عن كنائسها كنيسة ايشوعياب القسري (مار أشعيا حاليا) . ومن الناحية الاقتصادية زادت موارد الدولة نتيجة الاصلاح الجذري للضرائب , وتشجيع الزراعة وبالذات الحبوب , وتوج كل ذلك بالمشروع الاروائي العظيم الذي نهض به الوالي الحر بن يوسف واكمله الوليد ابن تليد والمتمثل بتحويل نهر دجلة الى ضفاف المدينة الحالية , كما شجع الامويون الثقافة ومختلف انواع العلوم . والخلاصة ان المظاهر الحضارية في العصر الاموي كانت بدايات لتطور حضاري متصل وشامل عرفته الموصل ومنطقتها في العصور اللاحقة

وفي العصر العباسي الاول (132-293 هـ/749-905 م) ازداد التطور الحضاري للموصل . فمن الناحية الادارية كادت الموصل ان تصبح عاصمة للخلافة الاسلامية في عهد الخليفة المنصور فكانت احدى المواقع المختارة للعاصمة من قبله عام (145 هـ/762 م) بيد ان بعدها في الشمال حال دون ذلك . كما نشطت الناحية الاقتصادية وتجلى ذلك بزيادة زراعة الحبوب والفواكه , وازدهار التجارة , فضلا عن الاهتمام بالناحية الثقافية ولاسيما في عهد الخليفة الرشيد وابنه المأمون المتمثلة بالتأكيد عن الترجمة والعلوم العقلية والنقلية والمناظرات العلمية وانشاء دار الحكمة وكذلك نصب المرصد الفلكية ومنها مرصد سنجار

وازدهر ذلك التطور الحضاري للموصل في بعض العهود التي تخللت العصر العباسي فيما بعد . ففي العهد الحمداني (293-381 هـ/905-991 م) تطورت الناحية الاقتصادية بفعل الاستقرار وسياسة

انماء الغلال والحبوب على حساب الاشجار غير المثمرة ولهذا تميزت الزراعة بوفرة وتنوع وجودة الحاصلات وفي مقدمتها الحبوب كالحنطة والشعير , وادخلوا لأول مرة زراعة الرز الجيد في منطقة عقرة , وتلتها الفواكه كالكثيرة والعنب والتفاح والرمان . كما شمل الازدهار الاقتصادي التجارة حيث عمد الحمدانيون الى صيانة الطرق وتوفير الامن للقوافل وكثرة الفنادق والاسواق المتخصصة . وفي مجال الصناعة عزت صناعة الموصل اسواق اوروبا كالسجاد والقماش والاعطور والحلي . كما شجع الحمدانيون الثقافة والحركة العلمية ولاسيما العلوم الصرفة والطب وبلغ الامر بتقديم الطب في الموصل الى ارسال ملك ارمينيا توائم سيامية لفصل ظهورهم عن بعضها في مستشفيات الموصل . وبرز في العهد الحمداني مشاهير الاعلام في مجال الثقافة والعلم ومنهم على سبيل المثال : الشاعر السري الرفاء والجغرافي ابن حوقل واللغوي ابن جني . كما كان للاديرة دور مشهود في الحركة الثقافية واشتهر من رجالها عما نويل بن شياري . وتميز العهد الحمداني بكثرة وتنوع المباني ولاسيما المساجد والفنادق والحمامات والقصور وفي مقدمتها دور المملكة (قره سراي حاليا) . وبرزت الموصل بهندسة مبانيها وتنسيق شوارعها واصبحت قبلت الزوار ومحط الرحال والعيش .
الرعيد , وتجلى ذلك بشعر السرية الرفاء

سقى ربا الموصل الزهراء من بلد جود من الغيث يحكي جود اهلها

ويحمد العيش فيها من يدانيها ارض يحن اليها من يفارقها

وحدث انحسار حضاري خلال العهدين العقيلي (380-489 هـ/990-1095 م) , والسلجوقي الذي اعقبه (429-521 هـ/1095-1027 م) , ولا سيما في المجال الثقافي والاقتصادي بسبب الظروف الطبيعية القاسية في بعض السنوات كالبرد الشديد وقلة الامطار والنزاع بين امرائهم والحروب مع الاعداء , ومع هذا ابتكر العقيليون طرقا جديدة للري كالتنوع على نهر دجلة والفرات , كما جددوا بعض العمائر كدور المملكة ووسعوها , واستحدثوا سورا يمتد من نهر دجلة عند مزار عيسى دده شرقا الى باب سنجان غربا , فضلا عن بعض الجوامع والمرقد كمسجد ومرقد الامام ابراهيم . اما السلاجقة فقد وسعوا دور المملكة , واسسوا العديد من المدارس كالمدرسة النظامية , (مزار الامام محمد ابن الحنفية حاليا) .

وفي العهد الاتابكي (521-660 هـ/1127-1262 م) وصل التطور الحضاري قمته في الموصل نتيجة الاستقرار واهتمام الاتابكية بالمصلحة العامة , وازدهار الاقتصاد . ففي مجال الزراعة اقتصروا من مشاريع الري وشق الترع فتحوط الاراضي الجدياء الى مزرعة بمختلف انواع الحبوب والفواكه والخضراوات حتى ان الفواكه اخذ قديمها يدرك الجديد , وزرعت ضفاف الانهار بالشواريق , وكثرت العناية بتربية المواشي والاعنام . وازدهرت الصناعة والحرف فمنها صناعات غذائية كالمعلبات والاجبان والعسل حتى ان الموصل كانت تميز بغداد اربعة اشهر من كل عام , كما كانت بعض الصناعات تلبى متطلبات المعيشة الاخرى وعلى رأسها الشاش الموصل المنسوج من القطن الصافي وكذلك قماش (الموسلين) المصنوع من القطن والحريز والمطرز باشرطة من الذهب والفضة وكان يهدى لنساء الملوك . وكذلك الصناعات المعدنية المكفنة بالزخارف والتصاوير من الذهب والفضة والآن تزين نماذجها معظم متاحف العالم . والحباب الفخارية المزينة بزخارف وتصاوير ملصقة اطلق عليها الاوروبيون اسم (الباربوتين) . وبالنسبة للتجارة كثرت اسواق الموصل وفنادقها وربطت بمواصلات برية ونهرية فعدت الموصل محط الركبان واحدى بلاد الدنيا العظام حسب وصف ياقوت الحموي . كما ازدهرت الثقافة والعلوم النقلية والعقلية ولاسيما الصرفة والطبية واسست العديد من المدارس والمستشفيات , وبرز اعلام مهمين بهذا المجال ومثالهم باللغة مجد الدين ابن الاثير

وبالشعر ابن الدهان والخطابة ابن الطوسي والتاريخ عز الدين ابن الاثير وكمال الدين بن منعة
موسوعة عصره المتضلع بالفلك والكيمياء والطب والحساب والجبر ومن مبتكراته وضع قوانين
بالرقاص (البندول) واستخدامه لقياس الزمن

وزخرت الموصل بعمايرها المختلفة ذات الطراز المميز من جوامع ومدارس ومستشفيات وقياسيات
. ومعظم المباني الاثرية التي وصلتنا من ذلك العصر : كالجامع النوري (الجامع الكبير) والمدرسة
الكمالية (شيخ الشط) ومزاري يحيى ابن القاسم وعون الدين وبقايا دور المملكة (باشطابية) . وكان
لاهل الموصل حضور مبرز من الناحية الاجتماعية تمثل بقول الرحالة ابن الجبير الذي زارها عام
(580 هـ/1084 م) :- (واهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون اعمال البر ولا تلقى منهم الا اذا
(وجه طلق وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم واعتدال في جميع معاملاتهم
وبعد سيطرة المغول على الموصل عام (660 هـ/1261 م) والعهود الاجنبية التالية حدثت تدهور
حضاري كبير بفعل الحروب والنزاعات لم تفق منه الموصل الا خلال العصر العثماني (922-1336
هـ/1516-1918 م) حيث بدأ الانتعاش التدريجي في مختلف نواحي الحياة ومنها الثقافية
والاقتصادية والعمرانية ولاسيما في العهد الجليلي ومعظم العماير التراثية الشاخصة والتي وصلتنا من
ذلك العهد ومنها : جامعي الاغوات والباشا والمدرسة الاحمدية وحمام العطارين والصالحية وخاني
الكمر ك وحمو القدو

اذن هذه هي الموصل اهم لبنات الحضارة الانسانية قبل ربع مليون سنة التي عرفنا بها بصورة
مركزة جدا , وستنهض من كبوتها الحالية شامخة باذن الله وبسواعد ابناها ترد كيد الاعداء
: والطامعين بيد , وتحمي راية العطاء باليد الاخرى , وهي تردد قول الفرزدق
اذا جمعنا يا جرير المجامع اولئك آبائي فجنني بمثلهم